هديّة الإخوان في شجرة الدخان

لمحمّد بن محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق المشهور بـ مرتضى الزَّبيديّ

حقّقها وقدّم لها الدكتور إبراهيم السامرّائيّ *

ترجمة المصنِّف

هو محمّد بن محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسينيّ الزَّبيديّ، أبو الفيض الملقّب بـ «مرتضى»، عالم بالعربيّة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنّفين[1]، توفّي سنة ١٢٠٥هـ. من أشهر مصنّفاته: تاج العروس في شرح القاموس، طبع غير مرّة.

أقول: ولم يشر الأستاذ الزركليّ في الأعلام ٧/٢٩٧-٢٩٨ إلى «رسالته» هذه، وهو يثبت مصنّفاته الكثيرة.

مقدّمة

إنّها «شجرة الدخان» كما أراد السيّد مرتضى الزَّبيديّ الحسينيّ في «رسالته» التي أضعها بين يَدَي القارئ، والتي وسمها بـ هديّة الإخوان في شجرة الدخان.

(*) عضو مجمع اللغة العربية الأردنيّ.

(١) أُنظر: فهرس الفهارس والأثبات للإدريسيّ الكتانيّ، فاس، ١٣٤٦هـ، ١/٣٩٨-٤١٣؛ الجبرتيّ، عجائب الآثار، مصر، ١٢٩٧هـ، ٢/١٩٦-١٠؛ وانظر الأعلام، الطبعة ٢، ٧/٢٩٧-٢٩٨.

أقول: لا بدّ أن نتوسّع قليلًا في الكلام لنطمئنّ إلى حقيقة الأمر، أنَبْتٌ هو أم شجرة. ولنبدأ بما ذكروا من تسميته بـ «الطُّبّاق»، ونثبت ما جاء به صاحب لسان العرب من كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوريّ وغيره من مصادر اللغة، قال:

«الطُّبّاق»: نبت أو شجر. قال أبو حنيفة: شجر نَحْلُ القامة ينبت متجاورًا لا يكاد يُرى منه واحدة، متفرّق وله ورق طِوال دِقاق خُضر تتلزَّج إذا غُمِز، وله نور أصفر مجتمع، قال تأبّط شرًّا:

كأنّما حَثْحَثوا حُصًّا قوادمُه أو أُمُّ خِشْفٍ بذي شَثٍّ وطُبّاقِ

ورُويَ عن محمّد بن الحنفية أنّه وَصَف مَن يلي الأمر بعد السفياني فقال: يكون بين شَثٍّ وطُبّاق. والشَّثّ والطُّبّاق: شجرتان معروفتان بناحية الحجاز

أقول: وفي «رسالة» صاحب تاج العروس هذه ما أفاده ممّا وجده في كتاب النبات وما أتى به ممّا ذكره غيره أبي حنيفة فقال:

«وفي بعض كتب المتأخّرين»: يشبه وَرَقه وَرَق الخَسّ إلاّ أنّه أكبر منه، وبَذْرُه أصغر من بَذْر الخِشْخاش».

وكأنّ صاحب رسالتنا هذه قد حاك في نفسه حقيقة «الطُّبّاق»: أشجر هو أم نبت؟ لقد علّق على ما أتى به ممّا وجده «في بعض المتأخّرين» من كون وَرَقه يُشبه ورق الخسّ فأراد أن يقرّر أنْ: ليس في الأمر إشكال فقال:

«وهذا القول لا يخالف ما قاله الدينَوَريّ في تجليته».

ثمّ أضاف صاحب «الرسالة» شيئًا وجده في اختيارات المفضّل بن محمّد الضبّيّ لأبي زكريّا يحيى بن عليّ التبريزيّ في تعليقه على بيت تأبّط شرًّا فقال في «الشَّثّ والطُّبّاق»: «هما نَبْتان يُقوّيان الراعية ويُضمّرانها».

ولم يترك الزَّبيديّ صاحب الرسالة هذا الذي أتى به من كلام التبريزيّ من أنّ «الشَّثّ والطبّاق» نبتان، فقال:

«ولا مخالفة بين قوله: «نَبْتان» مع قول الدينوريّ السابق «شجر»،

فقد يطلق أحدهما على الآخر تجوُّزًا».

أقول: لقد كان لي من بسط قول الدينوريّ وغيره ممّا ذكره صاحب «الرسالة» وما جاء من فائدة التبريزيّ أن أخلص إلى أنّه نبت مع القائل الذي أفاد بشبه وَرَقه بوَرَق الخسّ، وذلك لأنّي أرى هذا النبت في عصرنا كما ورد في قول التبريزيّ، وعليه فهو نبت وليس شجرًا.

وكأنّي أدفع القول بأنّه «شجر» بما ورد في كلام أبي حنيفة الدينوريّ في أوّل كلامه:

«أخبرني بعض أزد السُّراة قال: هو شجر نَحْلُ القامة ينبُت متجاورًا...».

أقول: لقد اعتمد الدينوريّ على قول «بعض أزد السراة» الذي كان مصدر هذه الفائدة، وليس لنا أن نعدَّ قول هذا الأزديّ شيئًا نطمئنّ إليه. والذي يكون لي في ما أستظهر به ما جاء من كلام غير هذا الأزديّ.

وأعود إلى لفظ «الطُّبّاق» فأجده قد تحوّل إلى «التُّبّاك». فالبدل بين الطاء والتاء قد عُرِف في العربيّة وأثبته أصحاب كتب الإبدال، وكذلك البدل بين القاف والكاف.

ثمّ إنّ «الباء المشدّدة» قد يعرض لها الفكّ فيُبدل من الباء الأولى النون فيكون «تُنّباك»، وتعويض النون من أوّل الصوت المضاعف معروف في العربيّة.

وكأنّ هذا «التّبّاك» الذي كان بعد الإبدال من «طُبّاق» هو الذي أخذه غير العرب، فذهب إلى ديار الإفرنج فكان Tabac أو Tabaco أو نحو هذا وذاك، هو الذي عاد إلينا فعرّبناه فكان لنا من اللفظ الإفرنجيّ «تَبَغ».

وأقول: إنّ في «رسالة» الزَّبيديّ جملة فوائد لغويّة وتاريخيّة حفزتني على نشرها.

مصوّرة المخطوطة

إنَّ أصل هذه المصوّرة في خزانة جامعة ييل (Yale) ورقمها ٣٤٩، وأمّا «الشريط» عنها ففي خزانة المخطوطات في الجامعة الأردنيّة ورقمه ١٢ - والمخطوطة في ثلاث ورقات.

وهي بخطّ النسخ، وهو حسن واضح، وفي كلّ صفحة ٢٠ سطرًا.

وقد صُدِّرت المخطوطة بسطرين باللغة الفرنسيّة وهما:

Extrait du *Hadīyat el-Iḫwān fi ṣaġarat ed-doḫān* par eṣ-Ṣiḫ Murtaḍa el-Huseinī, auteur du TA. Ms copié sur l'original de l'auteur.

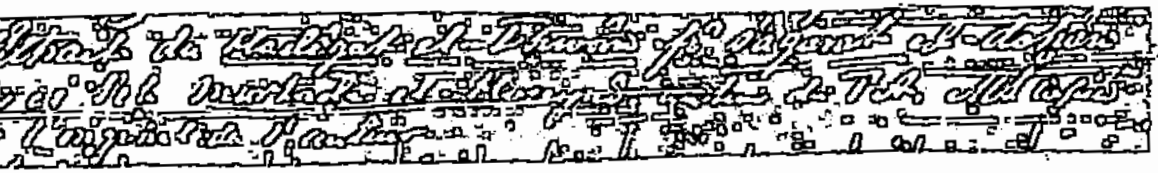

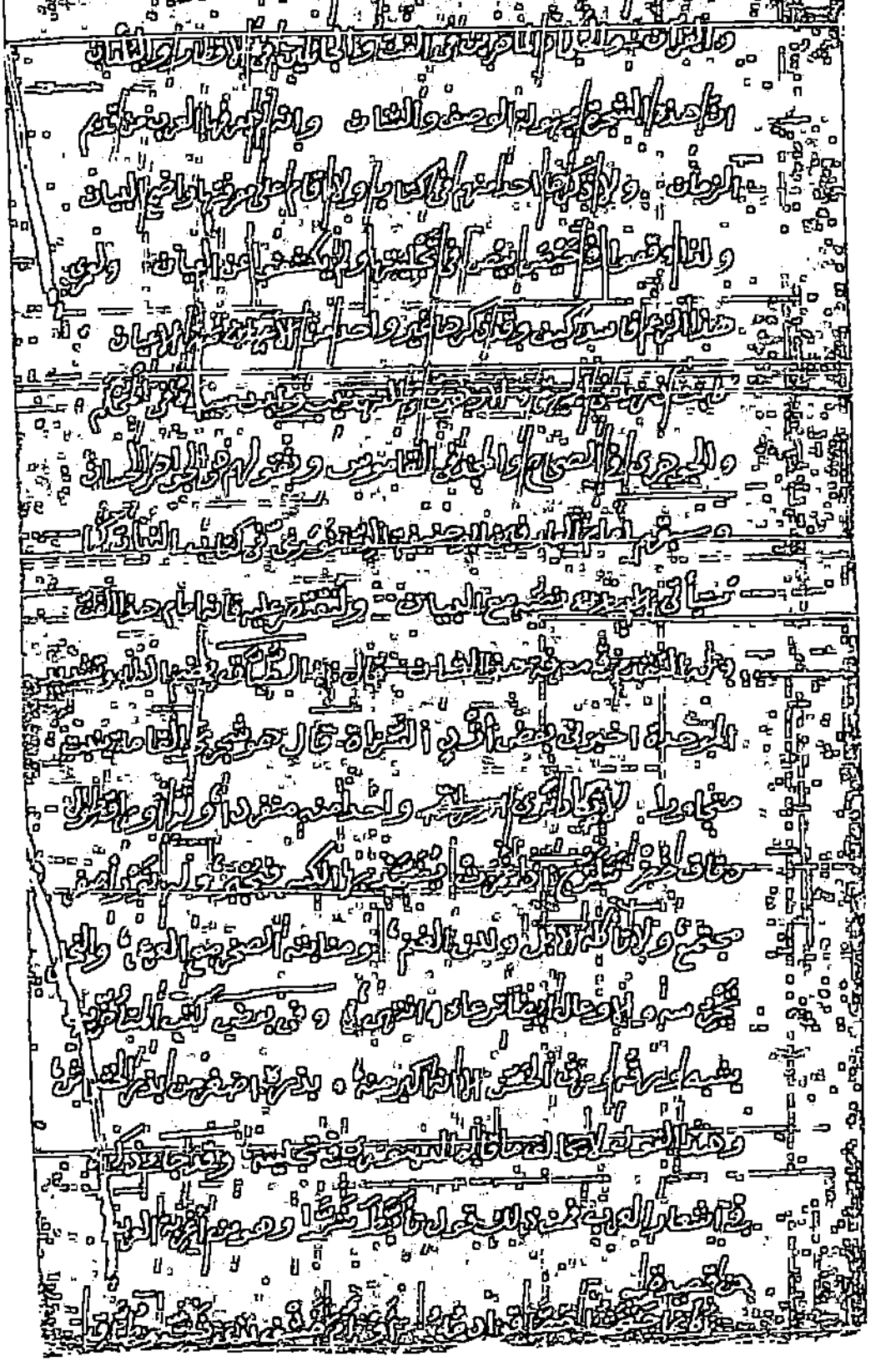

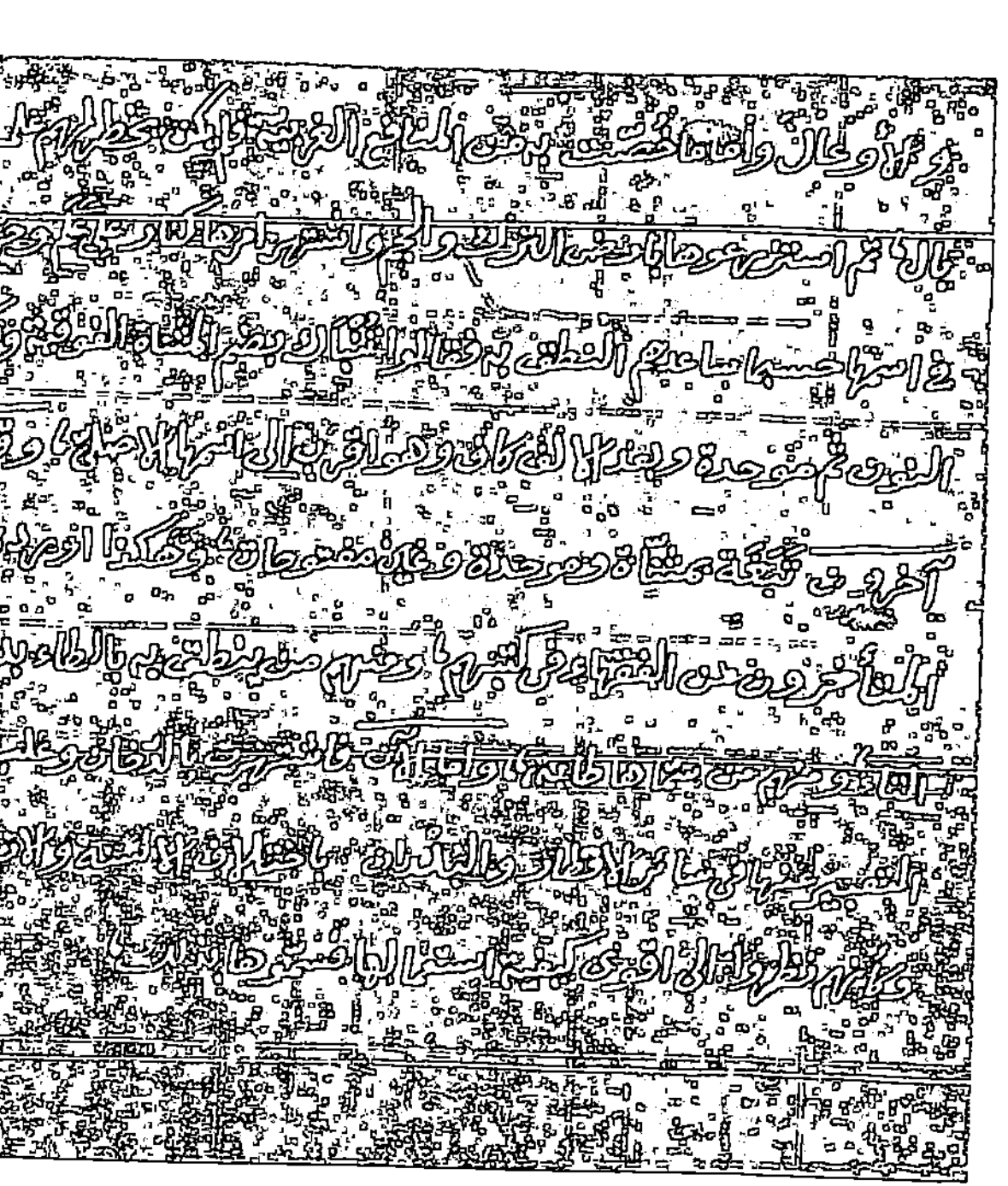

قال:

زَعَم كثير من أهل العصر، بل ومَن قَبْلَهم من جلّة الفقهاء العارفين بالسُّنّة والقرآن، والحكماء الماهرين في الفنّ، والجاثلين في الأقطار والبلدان، أنّ هذه الشجرة مجهولة الوصف والشان. وأنّه لم يعرفها العرب من قديم الزمان، ولا ذَكَرها أحدٌ منهم في كتاب، ولا أقام على معرفتها واضح البيان، ولِذا وقَعُوا في حَيْصَ بَيْصَ في تجليتها، ولم يكشفوا عن المِيان.

ولَعَمري هذا الزَّعْم فاسد. كيف، وقد ذَكَرها غيرُ واحد من الأئمّة الأعيان كابن دُرَيد في الجمهرة، والأزهريّ في التهذيب، وابن سِيده في المُحْكَم، والجوهريّ في الصحاح، والمجد في القاموس، ونُقولهم هي الجواهر الحسان.

وسَبَقهم إمام العارفين أبو حنيفة الدينوريّ[٢] في كتاب النبات كما سيأتي نصُّه مع البيان، ولنقتصِرْ عليه فإنّه إمام هذا الفنّ، وله التقدّم في معرفة هذا الشان.

قال:

«الطُّبَاق»، بضَمِّ الطاء وتشديد الموحّدة: أخبَرَني بعض أزد السَّراة قال: هو شَجَر نَحْلُ القامة يَنبُتُ متجاورًا، لا تكاد ترى واحدًا منه منفردًا. وله أوراق طِوالٌ خُضْرٌ تَلَزّج إذا غُمِزَتْ. يُضمَد بها الكسر فيَجْبُر، وله نَوْر أصفر مجتمع.

لا تأكله الإبل ولكن الغَنَم، ومَنابته الصخر مع العَرْعَر، والنَّحْل

---

(٢) هو أبو حنيفة الدينوريّ أحمد بن داود صاحب كتاب النبات. قال أبو حيّان التوحيديّ: جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب. له تصانيف نافعة غير كتاب النبات منها: الأخبار الطوال، مطبوع وهو مختصر في التاريخ. توفّي سنة ٢٨٢هـ. أنظر: إرشاد الأريب ١/١٢٣، وإنباه الرواة ١/٤١.

تجرِسه، والأوعال أيضًا تَرعاه، انتهى[٣].

وفي بعض كتب المتأخِّرين، يُشبه ورقُه وَرَقَ الخَسّ إلاّ أنّه أكبر منه، وبذره أصغر من بذر الخِشْخاش. وهذا القول لا يخالف ما قاله الدينوريّ في تجليته. وقد جاء ذكره في أشعار العرب، فمن ذلك قول تأبَّطَ شَرًّا، وهو من أغربة العرب من قصيدة: [من البسيط]

كأنّما حَثْحَثوا حُصًّا قوادِمُه أو أُمّ خِشْفٍ بذي شَثٍّ وطُبّاقِ[٤]

قال يحيى بن عليّ التبريزيّ[٥] في شرح اختيارات المفضّل بن محمّد الضبّيّ وهو في ما رأيتُه بخطّه ما نصّه:

حَثْحَثوا [بمعنى] حَثّوا. وعَنَى بـ «حُصّ القوادم» ظليمًا قد تناثر ريشُه. وعَنَى بـ «أُمّ خِشْفٍ» ظبية رَعَت مَنْبت الشَّثّ والطُّبّاق. وهما نَبْتان يُقوِّيانِ الراعية ويُضمِّرانها.

قال: ومعنى البيت: كأنّما حَرَّكوا بتحريكهم إيّايَ ظليمًا رَعَى الربيع فانحَصَّت كبار جَناحَيْه، أو ظبيةً أُمّ وَلَد ساعَدَها الرَّعي فقوَّى عَدْوَها وخَفَّتْ قوائمها، انتهى.

ولا مخالفة بين قوله «نَبْتان» مع قول الدينوريّ السابق «شجر»، فقد يُطلَق أحدهما على الآخر تجوّزًا.

وقد جاء ذكر هذه الشجرة أيضًا في حديث محمّد بن الحنفيّة - رحمه الله - وذَكَرَ رجلًا يلي الأمرَ بعد السفيانيّ فقال: حَمْش الذراعَيْن والساقَيْن، مصفَّح الرأس، غائر العينَيْن يكون بين شَثٍّ وطُبّاق.

---

(٣) كذا في كتاب النبات، وقد أثبته صاحب لسان العرب، وكذلك فَعَل صاحب القاموس المحيط.

(٤) ورد البيت في لسان العرب (طبق). وقد ورد في ديوان الشاعر صنعة إلهيمي في الطرائف الأدبية.

(٥) هو يحيى بن عليّ التبريزيّ، الخطيب، أبو زكريّا، من أئمّة الأدب واللغة، المتوفّى سنة ٥٠٢هـ، مصنّفاته كثيرة وأشهرها شرح ديوان الحماسة طبع غير مرّة. وأمّا شرح اختيارات المفضّل فما زال مخطوطًا ومنه نسخة نفيسة في مكتبة سوق العطّارين بتونس. أُنظر: إرشاد الأريب ٧/٢٨٦. وانظر الأعلام ٩/١٩٧.

وقال ابن الأثير في النهاية: هما شَجَران معروفان بنواحي جبال مكّة[٦].

أراد أنّ مَقامه أو مَخرجه يكون بالحجاز، انتهى.

قُلتُ: وهو قول الأصمعيّ، وكأنّه يعني به القحطانيّ[٧] أو غيره، والله أعلم.

وقد ظَهَرَ ممّا تقدّم من سياقهم مجموعًا أنّها شجرة عربيّة مَنابتُها أرض الحجاز. ولعلَّ وجهَ التسمية أنّ أوراقها في أصل نِبْتها مطبوقة بعضُها على بعض، ثمّ استَبْتَروها.

وأوّل ما ظَهَر خبرها في بلاد الإفرَنْج في أواخر القرن العاشر، فولعوا بها ونبَّهوا إلى منافعها. واتَّصَلَ ذلك إلى ما جاوَرَها من جزائر المغرب وأطراف بلاد الهند ممّا يلي البحرَ المِلْح. ثمّ بَرَز شُعاعها إلى بلاد العرب، وكان قد تُنوسِيَ أمرها، وغَفَلوا عنها ولم يكونوا يعرفونها. إلاّ أنّها عندهم من مراعي النَّحل والظِّباء والأوعال.

وأمّا ما خُصَّت به من المنافع الغريبة فلم يكن يخطُر لهم على بالٍ. ثمّ استَزْرَعوها بأرض الترك والعجم، واشتَهَرَ أمرُها كنارٍ على عَلَم. وحَرَّفوا في اسمها حسبما ساعدهم النُّطقُ به، فقالوا «تُنْباك»[٨] بضمّ

---

(٦) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (طبق).

(٧) أريد بـ «القحطانيّ» ما ذكره أبو حنيفة في أوّل كلامه: أخبرني بعض أزد السراة.

(٨) و«التُّنباك» معروف في عصرنا ويراد «التبغ» الخاصّ بما يُدعى الأرگيلة، أو «النرگيلة» في بلادنا العربيّة، وقد تدعى هذه الأداة «شيشة».
أقول: و«النرگيلة» تشير إلى صنف الخشب الذي يصنع منه الجهاز الموصول بأنبوب يُستنشّ منه أو يُمصّ أو يُستنشق دخان «التبغ» الذي يُوقد أو يتّقد في أعلى الجهاز. وهذا الخشب ممّا يُسمّى «نارگيل» وهو شجر جوز الهند في الفارسيّة. وقد حُوّل إلى لفظ «أرگيلة» في بلاد الشام ومصر. ثمّ جُعِلت «الناركيلة» للأداة كلّها، وهي معروفة في عصرنا.
وأمّا «الشيشة» فكلمة فارسيّة أيضًا وتعني الزجاج أو البلّور.
وأقول: إنّ «التباك» عرض له إبدال الميم بالنون فصار في بعض البلدان ومنها اليمن «تُمباك».

المُثَنّاة الفَوقيّة وسكون النون ثمّ موحّدة، وبعد الألف كاف. وهو أقربُ إلى اسمها الأصليّ.

وقال آخرون: «تَبَغَة»[٩] بمُثَنّاة وموحّدة وغين مفتوحان. وهكذا أورَدَه المتأخّرون من الفقهاء في كُتُبهم، ومنهم مَن ينطق به بالطاء بدل التاء.

ومنهم مَن سَمّاها «طابة»[١٠].

وأمّا الآن فاشتَهَرَت بالدخان[١١]، وعليه التعبير عنها في سائر الأقطار والبلدان باختلاف الألسنة والأزمان، وكأنّهم نظروا إلى أقوى كينيّة استعمالها فسَمّوها بذلك.

ملحق:

وأذكر أنّ أوّل معرفتي بما أسميناه «التّبغ» في العراق في آخر الربع الأوّل من هذا القرن، وعرفته في تسمية «التُّتن» وهو «توتون» في التركيّة العثمانيّة. كان بائعُه يُدعَى «تُتُنْجي».

وكان هذا النبات الجافّ يُؤتَى به في أكياس خاصّة كبيرة يزن أحدهما ما يقرب من مئة كيلوغرام. ثمّ يخضع لصنعة فيُفرَّق وَرَقه وهو أجوده، ثمّ يعمدون إلى العيدان فتُقطّع وتُدَقّ حتّى تصبح صالحة لما يخلط بالوَرَق.

وكان هذا يُباع لمَن «يُدخّن» مع دفتر صغير يشتمل على وريقات رقيقة، فيأخذ المدخّن الوُرَيقة ويفرش عليها التبغ ثمّ يجعلها لُفافة

---

(٩) قلت: كأنّ كلمة «تَبَغ» معرّب الكلمة الغربيّة «تَباك» Tabac.

(١٠) وأمّا «طابة» هذه، ولا أراها إلاّ بالهاء، فهي صورة عاميّة للكلمة الغربيّة.

(١١) وأمّا «الدخان» فهو معروف، وهو الذي نجده في قوله تعالى:
﴿ثمّ استَوَى إلى السماء وهي دُخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا...﴾ سورة فُصّلت.
﴿فارتقِبْ يومَ تأتي السماء بدُخانٍ مبين﴾ ١٠ سورة الدخان.
وأقول: وقرأت في الصحف المصريّة أنّ «التباك» يوصف بـ «المُتَسَّل»، ولم أهتدِ إلى هذا.

ويُدَخِّن. ومنهم مَن يأخذ التبغ ويضعها في وعاء من طين صغير، وهو طُوّر فكان ما يُدعَى Pipe. وقد يكون هذا أنبوبة صغيرة تُحشَى بالتبغ فيدخّن به المدخّن.

ثمَّ جدَّت مؤسَّسات (شركات) تُصنِّع التبغ في ما سمِّي «سيكاره»، وتعبّأ هذه «السكائر» في «عُلَب» أي «عبوات» في لغة عصرنا.

وكان لكلّ «عبوة من هذه» اسمٌ يعرف به، وما زلت أذكر عبوة سمِّيت «بغداد»، وأخرى سمِّيت «الفرات»، وأخرى سمِّيت «تركيّة» وغير هذا.

أمّا التبغ الخاصّ بـ «النارگيلة» أو «الشيشة» فهو تبغ خاصّ في صنعته وإعداده، فقد يخضع لشيءٍ من الخَزْن ليتخمّر ويصبح ملائمًا لأصحاب هذا الشرّ من «المدخّنين».

وأذكر شيئًا من هذا يجعل معجونًا يسمّونه «سُويكه»، يتناوله صاحبه في لعقةٍ صغيرة يُخبِّئها تحت لسانه، قد يكون لنا أن ندرجها ضمن «المخدِّرات».

من منشورات دار المشرق